أقوى رجل في مصر

وعندما علم الألفي بزحف جيش محمد علي بقيادة لاظ كتخدا بك، ترك حصار دمنهور واصطدم بجيش محمد علي يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٦ بالنجيلة، فوقعت معركة شرسة احتدم فيها القتال وبذل لاظ بك كل ما يملك من قدرات هو وجيشه في مواجهة جيش الألفي، ولكنه خسر المعركة، وخسر معها ستمائة مقاتل من خيرة رجاله، ويصف الجبرتي هذه المعركة فيقول:

"فركب الألفي بجيوشه وحاربهم، ووقع بينه وبينهم وقعة عظيمة، انجلت عن نصرته عليهم، وانهزام العسكر وقُتِل من الدلاة وغيرهم مقتلة عظيمة، ولم يزالوا في هزيمتهم إلى بحر النيل وألقوا بأنفسهم فيه، وامتلأ البحر بطراطير الدلاة، وهرب كتخدا بك وطاهر باشا إلى بر المنوفية، واستولى الألفي وجيوشه على خيولهم وخيامهم وحملاتهم، وأرسل رءوس القتلى والأسرى إلى القبودان صالح باشا، وأُشيع خبر هذه الواقعة في الناس وتحدثوا بها، وانزعج محمد علي باشا والعسكر انزعاجًا عظيمًا"

يا لها من إهانة كبيرة لحقت بلاظ بك المعروف بكتخدا بك، لقد خذل سيده بلا شك، وهو الذي وعده بالنصر، لقد كان لاظ حزينًا؛ ليس فقط لهزيمته، ولكن لعدم قدرته على مواجهة الباشا بهذه الهزيمة المهينة،

ولكنه تعجب كيف يفشل في هزيمة قوات الألفي ومعه جنود مدربون ومسلحون، بينما لا يستطيع الألفي اقتحام دمنهور وبها مقاومة شعبية يقودها نقيب الأشراف بدمنهور بتوجيه من السيد عمر مكرم، إنه بالفعل أمر محير، فلا يوجد جندي واحد بدمنهور يقاتل مع شعبها! ولم ينم لاظ في تلك الليلة في منوف، وأخذ يحدث نفسه عن مكانة السيد عمر مكرم في مصر، إنه أقوى رجل في مصر، أقوى من الألفي ومن محمد علي بل ومن قبطان باشا، فهو يستمد قوته من الشعب، وله من ينوب عنه في كل مدينة، فقد كانت نقابة الأشراف على مستوى مصر بالكامل لها تنظيم محكم، وتخضع بالكامل لإرادته، والشعب بدوره يحترم الأشراف في مصر ويسمع لهم ويطيع، أليسوا من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أما الألفي، فقد تشجع بهذا الانتصار وعاود حصار دمنهور، وقد زحف هذه المرة مُجَهَّزًا بمدافع كثيرة يقوم عليها رماة من الأروام أمده بهم الإنجليز، ولكن الألفي لم ينل من دمنهور منالًا؛ إذ دافع أهلها عنها رجالًا ونساءً دفاع الأبطال، وردوا هجمات المماليك المرة بعد المرة، وفي خلال الحصار، أرسل أهلها إلى السيد عمر مكرم وإلى محمد علي باشا بما يجدر بهم عمله، فجاءهم الجواب بوجوب الاستمرار على المقاومة، وأمدهم السيد عمر بكل ما يحتاجون إليه من الذخيرة.

ويقول الجبرتي عن ذلك:

"رجع الألفي إلى البحيرة وأراد دمنهور، فامتنع عليه أهلها وحاربوه وحاربهم، ولم ينل منهم غرضًا، والسيد عمر مكرم يقويهم ويمدهم ويرسل إليهم البارود وغيره من الاحتياجات"

وظل الألفي حوالي شهر، يحاول الاستيلاء على دمنهور فيرتد عنها خائبًا، وقد أثر هذا الفشل في تطور الأحوال تأثيرًا كبيرًا، إذ يمكن اعتبار دفاع دمنهور ذلك الدفاع الذي جمع بين الشجاعة والثبات، وكذلك تخاذل رؤساء المماليك الكارهين للألفي، من أهم الأسباب المباشرة التي أحبطت الخطة المرسومة بالاشتراك بين الباب العالي وبين الإنجليز، لإبعاد محمد علي عن مصر. ولم يكن ثبات أهل دمنهور غريبًا، فقد أظهروا مثل هذه الشجاعة والمثابرة من قبل في أثناء الحملة الفرنسية، في ظروف تختلف عن الظروف التي قاوموا فيها قوات الألفي، مما يدل على ما فطروا عليه من الشجاعة.